حاجة الإسلام إلى زعيم

للدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

نعم ! الإسلام بحاجة اليوم إلى زعيم يلم شعثه ، ويجمع متفرقه ، ويوجهه نحو الخير ، ويجعله حقا قوة من قوى العالم الحي الذي يسير قدما إلى الأمام ، ويسهم بذلك في سعادة البشرية

في الإسلام ، باعتباره دينا له عقائده وتشاريعه ومثله العليا ، قوى مذخورة لابد من الإفادة منها في قيادة العالم ، وكل ما علينا هو أن نستخلصها منه . وفي الأمم الإسلامية ، إن وجدت الزعيم الموجه القادر المخلص ، قوى مادية ومعنوية لا غناء عنها للبشرية . هذا كله بدهي لا يحتاج إلى بيان ، وهذا كله يحسه كل منا ويملأ به فمه حين يتحدث إلى أخيه في الدين أو الوطن

لو لم يكن العالم في ماضيه وحاضره ومستقبله بحاجة إلى الإسلام ، ما اتصلت السماء بالأرض لتوحي به وبرسالته ، فإن هذا الاتصال ، وهو خرق لقوانين الطبيعة ، لا يكون إلا حين تدعو الحاجة الملحة والضرورة المطلقة . وكذلك كان الأمر حين نزل وحي السماء بدين جديد يواثم الإنسانية وقد بلغت رشدها ، بعد أن استنفدت كل من اليهودية فالمسيحية أغراضها ، ويواثم أيضا الإنسانية في جميع ما تمر به من مراحل وأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها

ولكن هذا الدين على حاجة للعالم له ، ومع قيام نهضة أوربا على كثير مما جاء به ومما خلد على الزمن من تفكير أعلامه ، صار الآن مهملا من أصحابه ، وصارت دوله نهب الطامعين ، وصاروا لا شأن لهم في كثير من أمورهم بله أمور العالم عامة ! لماذا ؟ لأن الأمة الإسلامية لا تجد منذ زمن طويل الزعيم المؤمن حقا بإسلامه ورسالته ، فيأخذ بيدها إلى الأمام لتقتعد مقاعد العز والمجد بين الأمم المختلفة

نحن لا نشكو القلة في العلماء والمفكرين ؛ فعندنا بحمد الله علماء مبرزون في التشريع ، والتاريخ ، والآداب ، والفنون ، وعندنا كذلك كتاب مشاهير ، وخطباء مصاقع ، وأطباء نطاسيون ، ومهندسون بارعون ، ودهاقنة في أمور المال والاقتصاد ، إلى أمثال هؤلاء وأولئك ممن يقوم عليهم بناء الأمة ولا تستغني عنهم الدولة

ولكن ، مع هذا كله ، نرى البلاد الإسلامية لا تسير على الجادة المستقيمة ، ولا تكاد تسير برأيها الخاص وفق تقاليدها الخاصة في موكب العالم . ذلك ، ونكررها مرة أخرى ، بأن العالم الإسلامي فقد منذ زمن طويل « الزعيم » المؤمن بدينه وشريعته ، الفاهم لرسالته ، المخلص لدينه ولقوميته ؛ الزعيم الذي يجعل همه من حياته بيان طريق الخير وحمل أمته عليه ، والأخذ بيدها للسير فيه ، سر ذلك الغرب أو ساءه

نحن بحاجة إلى زعيم يفكر في الغاية التي يجب أن نصل إليها ، ويقدر الوسائل التي يجب اصطناعها ، ولو قلب في هذا السبيل نظم التعليم مثلا رأسا على عقب لتستطيع المدرسة خلق الشباب المسلم ، ويعمل على حمل قومه على الإسلام الصحيح عقيدة وقولا وعملا قبل محاولة حمل الآخرين عليه

إن نظام التعليم الحديث ، في الأزهر والجامعة على السواء ، قد فشل في أداء رسالته ، وهي تخريج جيل يحسن الإفادة بما تلقن من علم وحاز من ثقافة صالحة ، جامعا إلى هذا الاعتزاز بدينه وقوميته ووطنه وضميره وكرامته . إن هذا النظام قد أخرج ، ولا يزال ، لنا من الشباب من يقول ولا يفعل ، ويدعي ولا يحقق ، ويتمنى ولا يريد ، أو يريد ولا يصمم على بلوغ ما يريد ، ومن يعرف الدين دون أن يخالط الإيمان الحق

قلبه فينزل داعما عليه فى حكمه ، ومن يعتز بأوربا ويفتتن بكل ما رأى فيها دون تفرقة بين الحق والباطل والنافع والضار !

إن ممن تخرجوا على نظام هذا التعليم — حتى من الأوربيين — يفهم كيف تسخر الكهرباء والبخار وسائر قوى الطبيعة ، للطيران فى الهواء والسباحة فى الماء ، ولكنه مع هذا كله لا يحسن أن يمشى على الأرض !

ونظام هذا قصاراه ، وتلك نتائجه ، يجب التغيير منه ، إن لم تقل تغييره كله من أساسه ، ليقوم على أسس جديدة تجعله يخلق الشاب المؤمن الكامل فى طباعه وخلقه ، الفاهم حقا لرسالته التى تجمع بين عز الدنيا وسعادة الآخرة

نحن بحاجة إلى زعيم يعتقد مع شاعر الإسلام السيد « محمد إقبال » أن مقام المسلم فى هذا العالم مقام كبير خطير ؛ مقام الإمامة والتوجيه ، لا مقام التقليد والاتباع ، فإنه لم يخلق ليندفع مع التيار ، ويساير الركب البشرى حيث يتجه ويسير ؛ بل خلق ليوجه المجتمع البشرى والعالم والدنيا ، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته ، لأنه صاحب الرسالة والعلم اليقين ، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته . إن هذا المسلم ليس له ، إذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ويظل فى صراع معه حتى يقضى الله فى أمره . وما أحسن ما يقول السيد « محمد إقبال » حرفيا ، متمثلا فى هذا المقام : « سألنى ربى هل تناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ، يا ربى ! قال : لخاصمه ولا تبال ! »

نريد زعيما يرى أيضا مع شاعر الإسلام أن الخضوع للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الضعفاء والأقزام ؛ أما المؤمن القوى ، فهو بنفسه قضاء الله الغالب ، وقدره الذى لا يرد . وفى ذلك يقول « إقبال » حرفيا : « إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه »

نريد زعيما يرى ، مع هذا كله ، أن الدنيا لا قيمة لها لديه ، لا يهمه منها إلا ما يعينه على أداء رسالته . كما يوقن أن من تعدهم كبراء وعظماء ليسوا من ذلك فى شئ إذا وزناهم بالميزان الصحيح ، وأن هذا الميزان هو مقدار ما يقدمونه للدين والوطن والإنسانية من خير ، وأن الإسلام لا يعرف احترام الرجل لنسبه أو جاهه أو ماله فحسب

ولكن ، من لنا بهذا الزعيم وقد أعيانا من تعداد خصائصه ؟ إنه لم يكن صاحب رسالة إلا وقد صنعه الله على عينه وأعده لأداء رسالته ، وقد ختم الله رسالاته ورسله ؛ ولكنه ترك لنا بعد هذا ما إن تركناه لن نضل ، وهو القرآن العظيم ، والخير — كما يقول الرسول الأعظم — لا يزال فى أمته إلى آخر الدهر ، فلماذا لا نلتمس هذا الزعيم التماسا فى البيئات الصالحة لإنباته وإعداده وهى البيئة الدينية ؟

إن الناس لا يزالون بحمد الله ينقادون بعامل الدين واسمه ، أكثر من أى عامل آخر ، لأن الإنسان متدين بطبعه كما يقولون ، ولنا فى « آية الله كاشانى » على ما نقول دليل أى دليل !

إن لنا إذا أن ننتظر ظهور هذا « الزعيم » من البيئة الدينية الوحيدة عندنا وهى الأزهر ، لو أحسن القائمون على الأزهر اكتشاف العناصر الصالحة من أبنائه ، وأحسنوا بعد هذا القيام عليهم ؛ ليكون منهم فيما بعد الدعاة الأقوياء للدين ورسالته ، لا يعيشون إلا لهذا المهم الكبير ، وليكونوا رجالا يسمع لهم حين يتكلمون ، وقادة تلتف حولهم الأمة حين يتحركون .

والله هو المستعان ، الموفق للصراط المستقيم

محمد يوسف موسى
أستاذ بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

---

(١) اقتباس من رسالة : « شاعر الإسلام الدكتور محمد اقبال » للأستاذ الهندى المجاهد أبو الحسن على الحسنى الندوى